إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الحادية عشرة ـ العدد الثانی والأربعون ـ صیف ١٤٠٠ش / حزیران ٢٠٢١م
صص ١٦١ ـ ١٣٩

تحلیل البعد الدینی کعنصر فی الهویة الثقافیة فی روایة الوباء لهانی الراهب

یارا مرهج (الکاتبة المسؤولة)*
مصطفی موسوی**

الملخص

یُعتبَر تشتمل الثقافة علی طرق وأسالیب حیاة الناس فی المجتمع وتمیز بین الشعوب. لقد ولدنا جمیعًا فی سیاق معین للهویة یؤثر علی جمیع جوانب حیاتنا. فمن خلال التاریخ والدین واللغة وغیرها من العناصر التی تساهم فی تکوین الهویة، یتم تعزیز وتمکین هویتنا الثقافیة. إن للدین مکانة أساسیة فی تکوین الهویة الثقافیة السوریة. تمهد دراسة الهویة الثقافیة فی الروایة المعاصرة الطریق للتعرف علی أوجه التشابه والاختلاف الثقافی بین الأمم والعلاقات مع الدول الأخری فی مختلف المجالات الثقافیة والاقتصادیة والسیاسیة والعلمیة، إلخ. تمکننا قراءة آثار الکتّاب الذین عملوا علی بحث الثقافة والهویة الثقافیة فی آثارهم، من حمایة الهویة الثقافیة من التغییر والتحول والنسیان وضیاع عناصرها علی مر الزمن وتدفعنا إلی إحیاء ثقافتنا بطریقة لائقة. تهدف هذه المقالة إلی إظهار تأثیر الدین علی الهویة الثقافیة للمجتمع السوری فی روایة الوباء للکاتب السوری هانی الراهب، حیث اخترنا هذه الروایة لما أوصلته من صورة واقعیة عن ذلک المجتمع فی فترة معینة من الزمن ولإظهارها ماکان یشغله الدین فی حیاة هذا المجتمع بین الماضی والحاضر من خلال المنهج الوصفی التحلیلی. وتُظهر نتائج البحث أن الدین عامل أساسی فی تکوین هویة الأشخاص کما أن الاعتقاد الدینی للناس یتأثر بعوامل عدة علی مر الزمن فنجد فی هذا البحث أن الإنسان السوری فی الروایة أقل تمسکاً بالدین علی ماکان علیه فی الماضی.

الکلمات الدلیلیة: الهویة الثقافیة، الدین، المجتمع السوری، روایة الوباء، هانی الراهب..

*. طالبة دکتوراه فی اللغة الفارسیة وآدابها بجامعة طهران، طهران، إیران
ymrhej@alumni.ut.ac.ir
**. أستاذ مشارک فی قسم اللغة الفارسیة وآدابها بجامعة طهران، طهران، إیران mmusavi@ut.ac.ir
تاریخ الاستلام: ١٤٤٢/٠٩/١٣ق تاریخ القبول: ١٤٤٢/١٢/٠٧ق

المقدمة

إن الانتمـــاء إلـــى الوطن الأم، الذى تحدده حـــدود معينة، يظهِر فـــى الواقع انتماء الأفـــراد إلى هويتهم الوطنية والثقافيـــة. كل أمة لها ثقافتها الخاصـــة، هذه الثقافة هى هويتها الخاصـــة بها والتى تعتبر نظرة على الماضى والحاضر والمســـتقبل «ثقافة الأمة هـــى علمهـــا غير الواعى الذى تتوارثه أجيالها وتســـير به فى شـــؤون حياتها، أى هى طريقتهـــا الخاصة.» (مؤنس، ١٩٧٨م: ٣٢٣) ولعل أوضح وأشمـــل تعريف للثقافة برأى عـــدد من الباحثين هو تعريف عالم الاجتماع روبرت بيرســـتد حيـــث قال:«الثقافة هى ذلك المركّب الذى يتألف من كل ما نفكر به، أو نفعله، أو نتملكه كأفراد فى مجتمع ما.» (Bierstedt,1957: 106) وبنـــاء علـــى هذا فإن «الهوية الثقافيـــة كيانٌ يصير، يتطور، وليست معطى جاهز ونهائى. هى تصير وتتطور، إما فى اتجاه الانكماش وإما فى اتجاه الانتشـــار، وتغتنى بتجارب أهلها ومعاناتهم، بانتصاراتهم وتطلعاتهم، وأيضا باحتكاكها ســـلباً وإيجاباً مع الهويـــات الثقافية الأخرى التى تدخل معها فـــى تغاير من نوع ما.» (الجابرى، ١٩٩٨م) وللهوية أبعاد فلســـفية ونفســـية وثقافيـــة واجتماعية وأدبية ودينية واقتصادية واســـعة، وعليها تتشـــكل أنواع من الهويات، وهى: الهوية القومية، والهوية الدينية، والهوية الاجتماعية، والهوية السياســـية، والهوية الاقتصادية، والهوية الثقافية، ولكل منها عناصرها الخاصة التى تمثلها. تميز هذه العناصر، ثقافة مجتمع ما عن مجتمعات أخرى. يرى جلال أمين أن «الهوية معناها فى الأســـاس "التفرد"، والهوية الثقافية هى "التفرد الثقافى"، بكل ما يتضمنه معنى الثقافة من عادات وأنماط وســـلوك وميل وقيم ونظـــرة إلى الكون والحياة.» (أمـــين، ٢٠٠٩م: ٥٠) إذن فالهوية الثقافية هى نظام القيم والمعتقدات والمعايير والســـلوكيات التى ينتمـــى إليها الأفراد والتى تميز أمة عن غيرها ثقافيـــاً وتتمثل عناصرها باللغة والدين والأرض والعادات والتقاليد والفن. فكل مجتمع يؤكد على أصالة هويته الثقافية ويحاول الحفاظ عليها والدفاع عنها.

الأطر النظرية

الديانات السماوية كالإسلام واليهودية والمسيحية كانت ولا تزال الأكثر تأثيراً فى تاريخ البشـــرية، فالإتيان بتعريف شامل للدين، بحيث يرضى جميع الناس على اختلاف

أديانهم، ليس بالأمر السهل بسبب تعدد العقائد الدينية واختلافها فى أمور عدة. للدين دور كبير فى تعميق الهوية الثقافية لتشعبه فى الحياة الاجتماعية والفكرية وحتى السياسية للمجتمع وتنظيمه للعلاقات القائمة فيه.

يعتبر الدين كشعور باطنى من أهم عناصر الهوية، وهو من أهم عناصر الأسس الاجتماعية لأن الدين هو الذى يحدد اختلاف الهويات. الدين بحسب وجهة نظر السمالوطى: «ظاهرة اجتماعية يتضمن العادات والتقاليد والشعائر والمعابد والروايات المأثورة والمعتقدات والمبادئ التى تدين بها أمة أو شعب أو مجتمع ما. تمتد تعاليم الأديان لتشمل مختلف مجالات الحياة فهى تنظم علاقة الإنسان بالإنسان وتخيط علاقة الإنسان بالحياة وكذلک علاقته بالكون الواسع.» (السمالوطى، ١٩٨١م: ٤٦-٤٥) «أهم عنصر من عناصر الهوية هو الدين؛ إذ تذوب فى الحروب الهويات المتعددة العناصر، وتصبح الهوية الأكثر معنىً بالنسبة للصراع هى السائدة، وغالبا ما تتحدد هذه الهوية دائما بالدين.» (كاظم، ٢٠٠٩م: ٢٥٩) «الدين من أهم العناصر التى تقوم عليها الهوية وثقافة المجتمعات، وتبدو أهميته فى تشكيل فكر الناس وسلوكهم فى أنه دعوة لا تخاطب عقلية الإنسان فقط وإنما تخاطب أيضاً ضميره ووجدانه، لذلک فليس غريبا أن يكون الدين أو المذهب الدينى عنصراً أساسياً فى تكوين الطابع القومى، ذلک لأن الدين يولّد نوعا من الوحدة فى شعور الأفراد الذين ينتمون إليه، ويثير فى نفوسهم بعض العواطف والنزعات الخاصة التى تؤثر فى أعمالهم، فالدين من هذه الوجهة من أهم الروابط الاجتماعية التى تربط الأفراد بعضهم ببعض.» (عطية، ٢٠٠٩م: ٤٥)

الإسلام هو أحد ركائز الثقافة العربية. فالدين يكوّن الثقافة ويعززها بالقيم والمضامين ليستثمرها فى المجال الثقافى. يقول نصرى عن الدين كعنصر فى هوية الشعب الإيرانى أنموذجاً: «جزء مهم من انطباعتنا عن أنفسنا والآخرين هو نتيجة معتقداتنا الدينية. وفقًا لذلک، فإن سلوكياتنا وانطباعاتنا الذهنية تتفاعل بشكل معقد مع بعضها البعض، بحيث لا يكون تحليل السلوک ممكنًا دون فهم الأساس الذهنى وسبب الفعل. التعاليم الدينية هى أحد المصادر التى تشكل سلوكياتنا ومعتقداتنا. للدين فى إيران أيضًا أهمية من حيث أنه يلهم عناصر أخرى للهوية. بحيث لا يمكن دراسة الأساطير والعادات

والفنــون والتراث الأدبى واللغة بمعزل عن محتواها الدينى. بالطبع، لا ينبغى أن ننســى أن الدين والتدين فى أى مجتمع، بالإضافة إلى طبيعة الإنســان الهادفة والمحبة للكمال، يتأثران أيضًا بالأسباب والعوامل الاجتماعية والنفسية والاقتصادية وخاصة السياسية. الديــن والانتماء الدينى، على الرغم من كونهما أحد المكونات القديمة والأزلية للهوية، يتأثران بشكل كبير بالمجالات الاقتصادية والسياسية. يمكن أن يؤثر الوضع الاقتصادى الســائد والظروف السياسية على الأسس الدينية، ويمكن أن يؤثر الالتزام الدينى على النظام السياسى والســلوك الاجتماعى والاقتصادى للمواطنين.» (نصرى، ١٣٨٧ش: ١٩-٢٠) هكذا نجد مايشــكله الدين من عنصر أساسى فى تكوين هوياتنا وما يشكله مــن أثر على العناصر الأخرى المكونة للهويــة. ويضيف: «لا يمكن التحدث عن الهوية الدينية طالما أن سماتنا أو خصائصنا ليســت واضحة للآخرين أو أننا غير مدركين لهذه الخطوط المميزة. تكون حراسة أو حماية حدود الدين من العناصر الغازية الغريبة ممكنة بعد اكتســاب الوعى الذاتى الدينى. وعليه، فإن المتدين هو الذى يحمى ويحترم أحكام وأهــداف دينه ويختار هذه الحمايــة والاحترام كعنوان لسياســتة الواعية. لذلك فإن دراسة الهوية الدينية وحمايتها قبل أن تكون دراسة علمية، فهى دراسة الاستراتيجيات والسياســات، بحيث تصبح السياسة، بعد إدراك أوجه الشبه والاختلاف مع الآخرين، أمرًا محددًا وضروريا. لذلك لا يمكن دراسة الهوية الدينية دون دراسة سياسات ومنطق توزيع الســلطة.» (نفســه: ٢٠) ومن هنا تأتى أهمية هذا الموضوع حيث نسعى فى هذا المقال من خلال منهج وصفى- تحليلى إلى شرح الواقع الدينى فى رواية الوباء لإظهار تأثير هذا العنصر على الهوية الثقافية للمجتمع وتقديم تحليل لمكانة الدين خلال الفترات الزمنية المتباعدة للرواية.

أسئلة البحث

- ما هى مظاهر الدين التى برزت فى رواية الوباء؟
- ما هى مكانة الدين فى الهوية الثقافية لشخصيات الرواية بين الماضى والحاضر فى هذه الرواية؟

فرضيات البحث

- يبدو أن الروائى استخدم مظاهر عدة للدين فى تأثيرها على الهوية الثقافية منها التناص القرآنى والدعاء وقراءة القرآن.
- لعـل للدين تأثيراً أكبر على حياة النـاس وهويتهم فى الماضى مقارنة بالحاضر فى هذه الرواية.

سوابق البحث

يوجد بحوث عدة قامت بدراسـة الهوية الثقافية بشـكلها العام أما بالنسـبة للدين وعلاقته بالهوية الثقافية فهنـاک بعض البحوث التى تطرقت إلى العنصر الدينى ومنها: «مخاطر العولمة على الهوية الثقافية» لمحمد عمارة الذى تحدث عن عولمة الدين الإسلامى، و«مبانـى هويت ايرانى» لقدير نصرى حيث تحدث بشـكل موسـع عن عناصر الهوية فـى المجتمع الإيرانـى و منها الدين، و مقال بعنوان "عوامـل مؤثر بر هويت فرهنگى دانش‌آموزان اسـدآباد" لأحمد محمدپور يشـمل عدة عوامل مؤثـرة فى الهوية الثقافية ومنهـا الديـن حيث توصل إلى أنه كلما زاد الالتزام الدينـى للفرد ازدادت قوة هويته الثقافية، وهناک عدة أطروحات تناولت عناصر الهوية الثقافية و منها الدين: "بازشناسى مؤلفه‌هاى هويت فرهنگى وتبيين جايگاه آن‌ها در اهداف تعليم وتربيت ايران" لراضية إمامى من جامعة اصفهان، و"بررسى تطبيقى هويت فرهنگى در آثار سه نويسنده معاصر احمد محمود، على اشـرف درويشيان وسيمين دانشور" لعباس عزيزى تختى من جامعة پيام نور، و"بررسى تطبيقى هويت فرهنگى در رمان خاطرات تن از احلام مستغانمى و اتفاق از گلى ترقى" لمهرى صابر باغى من جامعة پيام نور و"هويت فرهنگى در مثنوى مولوى" لفاطمة آذرى‌تربت من جامعة مازندران. أما بالنسـبة لدراسـة هذا الموضوع تحديـداً فلم نجد حتى الآن بحثـاً يتناول هذا الجانب فى روايـة الوباء لهانى الراهب.

لمحة تاريخية عن رواية الوباء

تبدأ رواية الوباء فى قرية الشـير، وبين المـوت والحياة أيام تمضى وأجيال تتوالى. تلخص الرواية تاريخ أسرة السنديان والعنز التى تحول اسمها إلى العز والثارات بينهما

من أيام السفر برلک إلى ثمانينيات القرن الماضى. «الأبطال الذين تتجول عليهم كاميرا الكاتب فهم أبناء القرية، واختص منهم بمركز الصيارة عائلة السندیان الدينية العريقة التى تمرّس مشايخها عبر التاريخ بالاعتكاف، وكان آخر المعتكفين، شيخ السندیان السادس الذى توفى فى أوج "سفربرلک" التركى، وكانت وفاته –حسب الرواية– بداية النكبات التى راحت تتوالى على القرية.» (حرفوش،١٩٩٧: ١١٦–١١٧) تعالج الرواية القلق المسيطر على أسرة السنديان التى تمثل غالبية المجتمع السورى فى ذلک الوقت وهى الطبقة المتوسطة منه «ومن ثم تبدأ الرواية بمعالجة تلک الطبقة الاجتماعية الواسعة، حيث أنها تعيش قلق الحاضر فهى لم تقم على أسس ثابتة وقويمة. فمنذ أن كانوا يسكنون قرية "الشير" كان "شداد" يختلف عن "عبسى"، وكان الاثنان يختلفان عن "كنعان وأيوب"... وكانت الأسرة مختلفة فى الرأى والاتجاه. ثم نمت وترعرت وهى تحمل معها بذور الاختلاف والتباين إلا أنها تجد نفسها أمام اختلافها وتباينها من جديد وعجزها عن بناء حاضر متماسک يحتل الإنسان فيه مكانة مرموقة... فالإنسان الذى أهملته الطبقة المتوسطة فى أثناء نشوئها هو الذى جعل حاضرها الجديد قلقاً والسرد الروائى يعبر عن ذلک فنياً، ويردد دلالاته مباشرة.» (السقا، ٢٠٠٥: ١١٥)

الفساد والمال والسلطة التى هيمنت على شخصيات الرواية هى الوباء المتفشى؛ فالرواية تبدأ بالسفربرلک وتنتهى به فالماضى مايزال مستمراً فى الحاضر. «القسم الرابع، وعنوانه "سفر برلک" هو معايشة حياتية للظروف، ويجلوالعديد من الجوانب النفسية، والاجتماعية، والأيديولوجية للأبطال؛ والرواية بمجموعها تقوم على الرصد الجيلى الأسروى، وتركز على مشاهد الحياة اليومية، وسلوكية الأبطال.» (ابن ذريل، ٢٠٠٠م: ١١٥) يتناول هانى الراهب فى هذه الرواية العديد من الأسئلة المهمة التى لا يمكن لأحد أن يجيب عنها حول الحرية والديمقراطية ومكانة الشخص الواعى والمثقف فى المجتمع المدنى ودوره فى مجتمعٍ يتم فيه تدمير المعرفة والثقافة ببطء.

عنصر الدين فى رواية الوباء

العقاب والامتحان الإلهى

«توفى الشيخ قبل أسبوع من بدء الامتحانات، وبعد شهرين من زواج خولة. وطيلة

السنوات الخمس عاش في فوضى الحياة وخلخلتها دون أن يعيد الأمور إلى نصابها. صار يعتبر كل ما يحدث له ضرورة لا مفر منها. لذلك لم يبد عليه أي اضطراب أو مقاومة عندما وصل به الفقر حداً أجبره على ترك الاحتفال بعيد الفطر. اعتبر الأمر مشيئة من الله. وعندما حلّ العيد دون ذبائح توزع الى أهل الشير ودون برغل مطبوخ، نزل إلى الحاكورة وأمضى سحابة يومه في قطع الجذوع والأغصان اليابسة، وتكويمها وراء البيت الكبير كمؤونةٍ لبرد الشتاء.» (الراهب، ١٩٨١م: ٢٥ – ٢٤)

«كان موقناً أن كل مايحدث له عقوبة مستحقة، ولا يملك إلا الرضى.» (نفسه: ٢٥)

«الإنسان منفذ لا مصمم.» (نفسه: ٢٠)

الشيخ عبد الجواد من الشخصيات المحورية في الرواية، يفسر كل مشاكل ومصاعب الحياة على أنها المشيئة الإلهية. هذا الاعتقاد الديني يسهل عليه تحمل الصعوبات فلا يعترض لمواجهتها وهو بقول الأديب سلمان حرفوش: «عبد الجواد ذاك محور أساسي في الوباء. نه أكثر آل السنديان تطهراً وتديناً.» (حرفوش، ١٩٩٧: ١١٨) لكن شخصيات أخرى ترفض التسليم الكامل لهذا الاعتقاد وترى أن على الإنسان أن يجد حلاً ليواجه صعوبات الحياة؛ كان اسماعيل رجلاً فريدًا من نوعه في قرية الشير لديه أملاكا كثيرة فيها، لكنه بعد حادثة زواجه وجد نفسه رجلاً فقيراً والآن عليه أن يقوم بالشواء لكسب لقمة العيش. يعتبر اللجوء إلى مثل هذه المهنة بمثابة اختبار إلهي كونه لم يكن عملاً مربحاً وزبائنه من العمال. إنه ليس اختباراً بسيطاً بنظره، بل هو اختبارٌ يقارب اختبار صبر النبي أيوب عليه السلام: «كان شداد يأتيه بعدد من عمال الميناء، فيقدم لهم الشواء كأنهم ضيوف في بيته. "ابن عمي، ابن عمي، تريد توابل. توابل؟" كان يقول له بلكنته المعهودة. وذات يوم قال له الشداد بأدب وخصوصية، إن إدارته للدكان غير عملية، فضحك اسماعيل بصفاء: "أتحسبني مخلوقاً لهذه الشغلة، يا ابن عمي؟ لا. لكن الأيام تمتحنني كما امتحنت نبي الله أيوب".» (الراهب، ١٩٨١: ١٤٣). ذُكر في القرآن الكريم أن الله عز وجل امتحن أيوب عليه السلام بأبنائه وماله وعافيته، وخرج من هذه المحنة مستعيناً بالصبر؛ ﴿وَأَيوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا

وَذِكْـرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣ – ٨٤) الاختبار الإلهـى، موجود فى الهوية الثقافية للإنسـان السورى، ولهذا يفسـر الإنسان السورى المشـاكل فى ظل الامتحان الإلهى، الذى يجب أن يخرج منه الإنسان فخورًا بتحليه الصبر والايمان.

«قال اسماعيل: ابن عمى. هل تظن أن الحياة مأسـاة؟ –قال شـداد: والله لا أعرف. ماعندى وقت لأفكر فى الحياة من هذه الناحية. أنت أتظن أنها مأساة؟ –أطلق اسماعيل زفيرا طويلا. قال: لولا إيمانى بالله لقلت إنها مأسـاة.» (الراهب، ١٩٨١م: ١٦١) «كنت سأصل إلى كارثة لكن الله سبحانه وتعالى أنقذنى، ألهمنى إلهاماً.» (نفسه: ١٤١)

توضـح هذه الحوادث أن الاعتقاد بالعقاب هو فى أعماق الهوية الثقافية السـورية كما فى الأمثلة التالية: «كانت خولة جالسة على الكرسى، كانت تتساءل بصمت، لماذا لم يرزقهـا الله ولـداً. خطر لها أن فى الأمر عقوبة لذنب ما. ولكن أى ذنب اقترفت هى، ولماذا يعاقبها الله؟» (نفسـه: ١٣٠) وفى مكان آخر من الرواية، كانت خولة قد أنجبت طفلاً لديه مشـكلة فى القدم فتعتبر خولة أن هذه المشـكلة عند ابنها حيان هى عقوبة من الله: «خلال الشهرين المرهقين الذين أمضتهما قدم حيان فى الجبارة، عرفت هبوطاً حـاداً فـى فرحها وطمأنينتها. عاهة القـدم لم تكن أقل من كارثة: كيف سـيكبر الولد ويعيـش بين الناس وهو ناقص قدماً؟ وكيف غفلت طيلة هذه الشـهور عن خلل يمكن أن يكتشـف فى كل لحظة؟ ولم يطل بها الوقت أن هذه الكارثة عقوبة، ليس إلا. عقوبة بدأت بالغفلة.» (نفسه: ١٤٢)

أيضا نرى مصير أبناء مريم وحسـن الغفرى فى قرية الشير الذى رسمه أهالى تلك القرية بإرادتهم، بظنهم أنه عقوبة إلهية: «وبالتدريج تحول الامتناع عن مد يد العون إلى اقتناع راسـخ بأن مصائر الأشقياء الثلاثة عقوبة مستحقة. رأوا أن الله عاقب حسن ثم مريم وها هو يعاقب نسلهما.» (نفسه: ٧٤) كما كان اعتقاد أهالى القرية بأنه سيأتى اليوم الذى تُعاقب فيه مريم على أفعالها: «سيأتى يوم ويعاقبها الله كما تستحق.» (نفسه: ٨٢)

فى الطبيعة والهوية الإسـلامية للإنسان السورى، هناك من يعتقد بأن المشاكل هى ابتلاء الله، وبالتالى فإن الإنسـان لا يعترض أبدًا فى مواجهة هذه المشاكل وهناك من يجد أن الإنسان مصمم وقادر فى بعض الأحيان.

التوسل عند أضرحة القديسين

ويثبت لنا الكاتب تجلى البعد الدينى فى المجتمع السورى عندما يعرض سلوك بعض الشخصيات فى الرواية من خلال لجوئهم إلى الأولياء والقديسين للتوسط بينهم وبين الله حسب اعتقادهم.

«كان الليل يتساقط كالمطر على الفضاء. وبالتدريج ظهر البيت الصغير المتداعى، وتبين أن النافذة باب، وأن الضوء صادر عن قنديل وضع على الحصير عند ضريح الولى نور الدين. خلع الشيخ عبد الجواد نعله. دخل. قرأ الفاتحة مفتوح اليدين. كانت عتمة منزل الطبيب وضوء الولى قد دخلا بسرعة سهلة فى واعيته كرمزين واضحين. جثا على الأرض، ورائحة البخور المحترق تملأ أنفه وعينيه وقلبه وروحه، ونذر خمسا وعشرين ليرة. قرأ شيئا بتمتمة خفيفة وخرج.» (نفسه: ١٧)

يتجلى الجانب الدينى لهذا الشاهد المأخوذ من الرواية فى حقيقة أن زوجة الشيخ عبد الجواد تواجه مشكلة فى الولادة فقام عبد الجواد بالتوجه إلى مرقد أحد أولياء الله لحل المشكلة فقام بخلع نعليه احتراماً للمكان فى إشارة إلى الآية القرآنية ﴿إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدّسِ طُوًى﴾ (طه: ١٢) وقدم نذراً فى ذلك المكان المقدس لتكون ولادة الطفل ميسرة. فكما كان على النبى موسى عليه السلام أن يتخلى عن ممتلكاته ليدخل إلى عالم النور الإلهى، كذلك فعل الشيخ عبد الجواد ليدخل الضريح. إن الإنسان الذى يعيش فى ثقافة ذات هوية إسلامية على دراية بمفهوم العالم المقدس الإلهى، الذى لا مكان فيه للممتلكات الدنيوية.

أحمد سليم، إحدى شخصيات الرواية، يمرض بعد فترة وجيزة من وقوعه بالحب ويلجأ إلى أضرحة الأولياء للعلاج: «لكن أحمد سليم لم يرضخ لمعارضة والديه. لم يعلن أمامهما تعلقه بالفتاة، إلا أنه ازداد تعلقا بها. ومضى على الحب عامان. ثم حل به ذلك الداء المحير الغريب الذى أسلمه فيما بعد إلى القبر. فى البداية شكا من ألم عنقه. وازداد الألم. ومرت الأيام فصارت حركة العنق عسيرة. صار يغدو إلى الدكان ورأسه مائل كأنه يهم بالنظر إلى يساره. يجلس وراء آلة الخياطة وكأنه ملتفت إلى الشارع. عام كامل مضى وهو يرفض الذهاب إلى الشيخ عبدالهادى الريحان. أخيرا ذهب. لم

يشف. ركب حمارا ومضى إلى مزار النبى يونس. وعلى تلك القمة الشامخة أمضى ثلاثة أيام يخدم المزار وينام عند العتبة. لم يشــف. عاد مشروخ النفس: تارةً يسخر بمرارة من زيارتــه، تارة يترنح كالســكران من رعب الموت . . . فــى كل الأحوال، كان لابد من العودة إلى الشــير. هناك تيبّس عنقه إلا قليلاً، وتعيّن عليه أن يلازم ســريره الخشــبى. حملوه إلى جميع المزارات، وعند كل منها أمضى ثلاثة أيام.» (الراهب، ١٩٨١م: ١٢)

تلجأ بعض شخصيات الرواية إلى أضرحة الأولياء للتوسط بينها وبين الله فى طلب الشفاء أوالمغفرة بشفاعتهم. كما يريد أحمد سليم أن يعالج مرضه من خلال مناشدة هؤلاء الأولياء؛ فعندما تتعرض هذه الشخصيات لظروف صعبة تتجه للأولياء لتحقيق الأمنيات التى فشــلوا فى تحقيقها. نلاحظ خلال قراءة الرواية أن التوجه لأضرحة القديسين كان فى الفترات الزمنية الأولى للأحداث ولم يتم ذكره فيما بعد.

النذر

فكرة أخرى فى هذه الرواية هى قطع النذور لحل المشــاكل أو لشكر الله على نعمه. ابراهيم إحدى الشخصيات فى الرواية، لم يكن له من ذريته إلا البنات، وبعد أن أنجبت زوجته ست بنات، نذروا إلى لله ليكرمهم بصبى:

«ابتهلا إلى الله ونذرا النذور. وقرر ابراهيم أن يقيم فى كل عيد أضحى وليمة جماعية لســكان الشــير والقرى المجاورة، بعد أن كان الأمر مقتصراً علــى عيد الفطر. بعد عام ونصف وُلِد اسماعيل الســنديان. وكان عرس. وكانت ولائم. امتلأت ســاحات المدينةً باللحم المسلوق والبرغل المطبوخ، بالطبول والمزامير والرقص. وتوافد الناس من مسافة آلاف الأمتار، ليشــاهدوا الوليد لبيت السنديان، ويشبعوا الأكل كرمى له.» (نفسه: ١٦)

كما نذر الشــيخ عبد الجــواد عندما رأى جده فى حلمه يبشــره بالطفلة «وفى يوم مولدها الاربعين وفى أبوأحمد بنذره» (نفسه: ١٨)

التناص القرآنى والحديث النبوى

يعد القــرآن الكريم بإعجازه وقدرتــه على الإقناع، مصدراً غنيــاً للتناص الأدبى فيعطى النص الأدبى مصداقية وثراء. استخدم الراهب سورة من القرآن الكريم ليوظفها

فى الرواية بطريقة مناسبة للنص الأدبى لديه: «وصل اسماعيل فى جمحة فرس أخيرة. حيا الطفلة المرأة فاضطربت شفتاها. هتف: "بنت العم تجمعين الحطب!" ولم تجب. أضاف بلهجته التى لا تنسى، التى تحشر حروف الكلمة فتلفظها بنصف الوقت المألوف وتطيل الفسحة بين الكلمتين: "لا يجوز. لا يجوز. أنت بنت السنديان. تجمعين الحطب! سأبعث لك تفاحة. تجمع عنك. ياالله إلى البيت." ووجدت نفسها تقول: – أنا مبسوطة أحب الشغل

- لا لا .سيقال عنك. حمالة الحطب، فى جيدها حبل من مسد. تعرفين هذه؟
- امرأة أبولهب
- برافو. الآن. إلى البيت
- لا أنا فلاحة وهذا شغلى
- كلنا فلاحون. أنت وحدك بس؟ستجيؤك تفاحة وتحمل الحملة. انت ارجعى إلى البيت. أنا سأقول لأيوب. هذا لا يجوز» (نفسه: ٤٢)

يقابل هذا الشاهد من الرواية سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَامْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الْحَطَبِ ۞ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾

توعّد الله عز وجل أبا لهب وامرأته حمالة الحطب بعذاب شديد، فلقد حملت صفة "حمالة الحطب" معنى سلبى فى هذه السورة؛ ولهذا طلب اسماعيل من ابنة عمه خولة الابتعاد عن هذا العمل لأنه على حد قوله فهو لا يناسب آل السنديان، وسيرسل لها تفاحة لتحمل حملة الحطب عنها، لكن خولة لا ترى هذا العمل معيب بحقها فهى فلاحة ومن الطبيعى أن تجمع وتحمل الحطب فهى امرأة عاملة بهذه الصورة لكن بعد فترة تشعر خولة بتأنيب الضمير لأنها دعت الله أن يخلصها من خطيبها فمات فاعتبرت أن عملها كحمالة حطب هو عقاب من الله. «لوفى صدرك قبس، مثلما يقول أبوك، كنت عرفت الآن أن الله قال كلمته دون أن تنتبه. انظر إلى الآن أنا حمالة الحطب.» (الراهب، ١٩٨١م: ٩٦) فنجد هنا كيف أن المجتمع يصدر أحكاماً بما هو جيد أو سيء مستنداً على أدلة دينية أو تاريخة دون النظر إلى مناسبة هذه الأدلة.

«وفجأة اكتشف أن لحيته صارت شائبة، وبطنه وسيعة : وسيعة حتى لتضايقه فى الركوع والسجود. عجيب! كيف صار هكذا دون أن ينتبه ؟ حتى أم أحمد لم تنتبه، فهى لم تغمز ولم تلمز. أم أنها انتبهت؟ ياللنساءّ وراح تأمل بطنه إلى أن وقر فى نفسه اعتقاد جازم بأن هذا البطن كرش وليس مجرد بطن. يا للنساء العظيمات! يقبلن بأزواجهن كيفما كانوا. وانفلت فى ذاكرته شريط من الذكريات أكد له بما لا يقبل الشك أن أم أحمد هى المرأة الودود الولود التى تحدث عنها سيدنا محمد.» (نفسه: ١٨) يرى أبو أحمد أن زوجته هى من النساء اللواتى تكلم عنهن الرسول الكريم بحديثه : «تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم» (الزين، ٢٠٠٩م: ٣١٥) فلقد ارتفعت مكانة أم أحمد عنده.

وظف الراهب أيضا الحديث الشريف «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أوامرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (نفسه: ٣٤٨) فى نصه الأدبى عندما دار حوار بين خولة وعبسى عندما تمنت خولة موت خطيبها ومات فعلا : «– اسمع يا عبسى أنا نويت موته. فهمت؟ أنا كأنى دعوت الله أن يموت يونس. فهمت؟

- يا للجريمة النكراء! يا لطيف! عزيزتى أنا تمنيت موت عدد من الناس مئة مرة. القانون لا يحاكم المشاعر
- إنما الأعمال بالنيات
- وماذا عملت أنت؟ كنت بعيدة ثلاث كيلومترات عنه. الأعمال بالنيات نعم لكن ماذا عملت أنت؟ الانسان مسؤول أمام القانون بس ومسؤول عن أفعاله لا نواياه» (الراهب، ١٩٨١م: ٩٦) استحضار الحديث النبوى فى النص بشكل صريح ليبين الفرق بين القانون والشريعة بين العمل والنية.

كأمثلة أخرى: «تعيشوا على الصدقات السرية يعطيها لهم خلسة أناس أبرياء من وخم مريم وخائفون على شرفهم من التقولات. وعندما انضم الشيخ عبد الجواد إلى هؤلاء، تجرأ آخرون وقدموا لهم طعاما. وقد دأب الشيخ على تكرار القول الكريم: ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. وإنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم

جزاء ولا شكورا» (نفسه: ٧٥)

«العـرس مصروف عالفاضي وفخفخة مالها لزوم يقـول تعالى في كتابه العزيز وما الحياة إلا متاع الغرور» (نفسه: ١١٣)

الإسلام في الحياة اليومية

يعتبر المسلمون أن تلاوة القرآن والعمل به، كلها عبادات يتقرب بها المسلم إلى الله. نجد أن تلاوة وحفظ القرآن له أهمية كبيرة، وقارئه أو حافظه له مكانة عالية في محيطه، خصوصا في المراحل الزمنية الأولى من الرواية.

«وكان أيوب في السـابعة وبلا مدرسـة، يقرأ القرآن كلـه، دونما خطأ، ولكن بدون مدرسـة. كذلـك كنعان: الأعجوبة الصغيرة، بل النابغة، الـذي ختم ربع القرآن قبل أن ينتبه أحد» (نفسه: ١٧)

«شعوري الآن مثل شعوري يوم قرأت القرآن أول مرة وامرأ القيس أول مرة يومها بهرني ذلك الارث العظيم» (نفسه: ١٦٢)

«لم يتمكن من أن يصير شـيخا، فذلك ميراث محصور ومسـتعص، يتطلب وصا في آبار العلم لم يكن عقله مهيأ له» (نفسه: ٢٧)

القرآن الكريم معجزة كل زمان ومكان جعله الله سبحانه وتعالى هدى ورحمة للناس. يؤمن المسـلمون بأن آياته لها فضل كبير في حمايتهم من الحسـد والمرض ووسوسـة الشـيطان وهذا ما وجدنـاه في الرواية فتلجأ الشـخصيات لتلاوة آيـات من القرآن الكريم عندما تشـعر بالخوف أو المـرض والعجز: «أين وضعت القـرآن؟ تناول الأب القرآن والتفت" أشـعل بخوراً في فخارة وهاتـه" ومضى إلى خولة. وضع الكتاب وراء رأسها وأخذ يقرأ. قال عبسى: لماذا البخور؟ تريدون أن تخنقوها؟ خولة مريضة بالحمى ودواؤها الكمادات الباردة. قال الأب بمرارة: أنت أشـطر من حكمة الرب؟ ويلك من الله. ياويلك من نفسك.» (نفسه: ٩٣ – ٩٤)

«أبوأحمد يقرأ القرآن فوق رأسـها ويدعوالله أن ينجيها من المرض رحمة الله عليه.» (نفسه: ١٢٥)

«سمع الصوت. التفت حوله وجحظت عيناه. بسـمل. قرأ الفاتحة، ثم آية الكرسـى.» (نفسه: ٤٩)

«وتصـرخ من البداية الصوت غير طبيعى أيكون تحت شـباكنا الله لا اله إلا هو لا تأخذه سنة ولا نوم له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يـا ربى ماهى التتمة الآن يصل أحدهم ...وإذا ناديت يمكن أن أفتح فمى ويدخل فمى وأبدأ بالصراخ مثلها شـكيب شكيب شكيب – ماذا مالك يا حبيبتى؟ – رضا... كريمة المجنونة تصرخ تحت الشباك – أهذا الذى أخافك؟ لماذا لم تنامى؟ -كيف أنام والجن تصـرخ فى الزقاق؟ ما هى تتمة آية الكرسـى؟ لاتنظر إلى الشـباك يمكن أن تلطمك الجن الزقاق مسـكون ولولم أقرأ لدخلـوا البيت – لا جن ولا من يجنون الأصوات من صفائح التنک أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم هذه الليلة غير طبيعية.» (نفسه: ١٢٣)

التزمت غالبية الشخصيات فى رواية الوباء بأحكام القرآن من عبادات ومعاملات وأخلاق ويبدو التقيد بالتعاليم الدينية أشد وأوضح كلما عدنا للوراء فى التاريخ الزمنى لأحداث الرواية:

«بعد أول رمضان من استقرارهم فى المدينة، جاءت خولة.» (نفسه: ١٧)

«بعد رمضان ثان ولد عبسى وبعد رابع ونصف ولد شداد.» (نفسه: ١٨)

«كان شـىء من طبيخ البرغل وشىء من اللحم المسلوق يصلان إلى كل بيت. وكان البيت الكبير يضيق بالرجال، فتقام الصلاة تحت شـجرة جوز قطرها مئة خطوة يمتلكها آل الحطاب جميعهم.» (نفسه: ١٩)

«يا للروح الضالة التى لم تهتد لله. بماذا يجيب وهو فى القبر عندما يسأله أنكر ونكير عن نفسه؟» (نفسه: ٢٧)

«سبعة أيام واظبوا على الخروج إلى الضريح الجديد المغطى بالريحان، والعودة إلى البيت الكبير لتلاوة آى الذكر على روحه.» (نفسه: ٣٩)

«أنت يا شيخ اسماعيل متضايق مما رزقنى الله؟ – أعوذ بالله يا عمى أبو مأمون لكن الله أعطـاک لتعطـى عباده – وأنا اعطى عباده أكثر مما يعطيهم أى رجل فى الشـير – ليسـت هذه هى النسـبة التى قررها الإسلام يا عمى أبو مأمون – تظن أنه واجب على

أن ادفع؟ هذه منة يا شيخ لا واجب.» (نفسه: ٥٦)

«سبعة أيام أخرى والذبائح تنحر والناس يأكلون ويترحمون على آخر ضوء يأفل من آل السنديان.» (نفسه: ٦٠)

«وكانت عيناها شاردتين عند الجوزة الكبيرة التى تقام تحتها الصلاة فى الصيف.» (نفسه: ٦٣)

«رضيع حملته يمامة ليلاً ووضعته أمام بيت أحمد الغفرى الذى أفاق لصلاة الصبح ووجد اللفافة فعرف.» (نفسه: ٧٤)

«نلتقى فى السيارة بعد صلاة الظهر. يالله.» (نفسه: ١٠٤)

«وعندما انتبهت تناهت إلى أذنيها تراتيل من المسجد المجاور.» (نفسه: ١٢٩)

الدعاء

تُخطب خولة لشاب اسمه يونس لكن خولة غير راضية عن هذا الارتباط ولا يمكنها أن تعارضه. لذلك، عندما يئست من كل شيء، طلبت من الله عز وجل التخلص من هذا العريس: «تنهدت كما لوصخرة استقرت داخل صدرها. رفعت رأسها إلى السماء. "يا رب خلّصنى! خلصنى يا رب! مرة واحدة بس. وبعدها لا تلب لى طلباً. يا رب!" عند الباب التقاها شداد بتأثر مرتبك. سألها: "أين كنت؟ سمعت بالخبر؟" نظرت إليه منتظرة ولكن بلا تساؤل. قال: "يونس ملحم مات. خبرونا من ساعة. وأبوك راح إلى بيتهم.» (نفسه: ٩٢)

مثال آخر: «هبت العاصفة. فى العام الفائت استطاع الرجال والنساء إنقاذ أكثر من ثلث المزروعات. رفعوها عن الأرض سنبلة سنبلة، بقليل من الأمل وكثير من الثقة برحمة الله. وانصرف أيوب إلى قراءة القرآن.» (نفسه: ٤٥) «وأيقن الفلاحون أن صلوات أيوب فى العام الفائت لم تذهب عبثا، وإن تأخر قبولها عاما كاملا.» (نفسه: ٤٦) يذكّرنا هذا الحدث فى الرواية بالآية القرآنية ٦٧ من سورة الاسراء: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٦٧) تتشابه الآية مع ما حدث فى الرواية أن الإنسان عندما تضيق به الدنيا

يذكــر الله وحده. لأنه فى هذا الموقف يــدرک أكثر من أى وقت مضى أن حله الوحيد، فى يد الله.

مثال آخر: «انجدنى يارب هذه المرة ولا كل مرة وبعدها لاتلب لى طلباً.» (الراهب، ١٩٨١م: ١٢٧)

الدعاء للميت بالرحمة كلما ذُكر فى الحديث أو الدعاء لعزير بالتوفيق هو أحد المعالم الدينية التى تتسم بها هوية المجتمع السورى فى كل المراحل الزمنية للرواية: «يا ابنتى الله يرضى عليكى.» (نفسه: ٨٣)

«ســبعة أيام أخرى والذبائح تنحر والناس يأكلون ويترحمون على آخر ضوء يأفل من آل السنديان.» (نفسه: ٦٠)

«لأن أمک الله يرحمها.» (نفسه: ١٦٨)

«أيوب رحمة الله عليه كان أخا لا كل الأخوة.» (نفسه: ١١٣)

«أبوک الله يرحمه.» (نفسه: ٩٧)

ذكر الله

يعــدّ ذكــر الله تعالى من الأمور التى تدل على قرب الإنســان مــن ربه، حيث قال تعالــى: ﴿يا أَيهَــا الّذِينَ آمَنُوا اذْكُــرُوا اللّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ (الأحــزاب: ٤١) وقد ذكرت الشــخصيات فى الرواية الخالق بطرق متعددة؛ كحمده وتســبيحه واستغفاره إما لإبعاد تســلط الشيطان: «منتهى أغرقت نفسها أمس فى بئر الدروقية –أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؟ لماذا؟» (الراهب، ١٩٨١م: ٥٥)

أو لإكســاب البدن والروح القوة: «التفت إلى الأم: أى شىء جرى لها؟ – لا أعرف رجعت قبلنا من عين الغســيل ووقت وصلت شفتها على هالحالة –عين الغسيل؟ ملأت الدست بالماء –ملأته –سمت باسم الله الرحمن الرحيم؟ –لازم أن تكون.» (نفسه: ٨٥–٨٦)

أو لشــكره عز وجل على نعمه: «وهناک الشام تظل نصف نهار وأنت تمشى وتضيع أن لم تذكر العلامات بلاد فى وســطها نهر...والبســاتين الكثيفة سبحان الله من كل شجر نوع.» (نفسه: ١١٥)

أو لأسباب كثيرة نذكر هنا بعضاً من أمثلتها فى الرواية: «الحمدلله وصلت فى اللحظة الأخيرة.» (نفسه: ١٢٦)

«أستغفرک يارب.» (نفسه: ١٢٥)

«لن تموت بإذن الله.» (نفسه: ١٢٥)

«صحتک بألف خير من الله.» (نفسه: ١٢٣)

«الحمدلله هذا الوجع لايؤثر بالنسبة لشكيب.» (نفسه: ١٢٣)

«الشام لابسة ملاءة بيضاء وهذه الجبال لأول مرة تظهر فيها الحياة والنباتات وأشجار الغوطة سبحان الله.» (نفسه: ١٢١)

«قد يصيبه مكروه لاسمح الله.» (نفسه: ١١٨)

«الحمدلله ياربى الاثنان نجحا.» (نفسه: ١١٧)

«هذا الشباک نعمة من نعم الله.» (نفسه: ١١٧)

«الحمد لک ياربى لم يحدث شيء.» (نفسه: ١١٦)

«الحمد لله الحمدلله وصلت يأخى إلى مبتغاک.» (نفسه: ١١٦)

«لاتظنى أنى نادمة، قريبا إن شاء الله سأموت، وأنا راضية.» (نفسه: ١٠٨)

«تقدم المختار برفقة رئيس المخفر وبسمل وصاح عند العتبة.» (نفسه: ٧١)

«أخيرا اقبلوا (الدرک) لمحهم كثيرون واستعاذوا بالله.» (نفسه: ٦٨)

التفسير الشخصى للدين الإسلامى

«استدار ومشى فى البهو. أجل. المال والبنون زينة الحياة الدنيا. ليس عبثاً أن جاءت (المال) قبل(البنون). إذا لم يوجد المال، لا يكون البنون زينة الحياة الدنيا.» (نفسه: ٢٤٠) تفسير شداد للآية القرآنية له نفح مادى اقتصادى. يريد الكاتب أن يقول إن الاقتصاد والمال فى العالم الحالى حاسمان لدرجة أن بعض الناس يفسرون الآيات القرآنية من ناحية مادية؛ فهو اتخذ جزء يناسبه من الآية الكريمة و أهمل باقى الآية: ﴿المال و البنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربک ثواباً وخيرٌ أملاً﴾ (الكهف: ٤٦) يقول الراغب الأصفهانى فى كتابه المفردات فى غريب القرآن إن

استخدام كلمة "رأى" بشكل وافر فى الروايات؛ فلأن هذه الكلمة لا تعنى الادراک العقلى، لكنها تعنى الاعتقاد الشخصى والذوق أو التخمينات التى تغلبت على الإنسان. «إن الاعتقاد الشخصى الذى يحاول صاحبه الحصول على دليل لتأكيده من القرآن، وحتمًا، لتحقيق هدفه، فإنه يعرى الآيات من معناها المتعارف عليه ودلالتها الظاهرية ويحملها اعتقاده.» (تقويان، ١٣٨٧ش: ٦١)

لقد كانت مريم خضير إحدى أبطال رواية الوباء، محور أحاديث أهالى الشير، فاتهموها بالزنا رغم أن أحداً منهم لم يراها تقوم بالفاحشة، مع أن الله أمر الناس فى القرآن الكريم بشكل صريح: قوله تعالى : ﴿وَاللَّاتِى يأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ (النساء: ١٥)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِکَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور: ٤)، وقوله: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِکَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (النور: ١٣) يظهر الكاتب فى السياق الروائى أن المجتمع فى بعض الأحيان يأخذ مايريده من دينه ويعمى عينيه عما لا يعجبه فيه، هذا المجتمع الذى يتشبث بالدين ويتبع الشيوخ ويتمسک بتعاليم الدين فى الأعياد والأفراح والعزاء والدفن وإقامة الصلاة ولكنه ينسى أو يتناسى بعضها عندما يتعلق الأمر بالحكم على الآخرين. ولعل الكاتب اختار اسم مريم لهذه الشخصية ليتناسب مع الاتهامات التى رماها الناس على مريم العذراء عليها السلام فقد رماها الناس بالكلام لحملها بلا زواج.

مريم خضير التى عرفت بعد خيانة زوجها حسن الغفرى، بالمرأة القبيحة والشريرة ورمز الشر بشكل عام، تجيب على سؤال لخولة إن كانت تخاف الله أم لا، فتقول: «نعم: كل عمرى أخاف الله. ما خاف الله أحد مثلى. كنت أخافه وأحبه. وكنت أتعذب. لكن ماذا أفعل؟ من يقدر أن يرفض الحرية. شىء من جواتى طقّ. أنا طلعت برّاة البرميل. وكلما مشيت خفت خوفا ما بعده خوف. وبعده فرحت. لأنى بعدت عن البرميل. كان الله موجودًا فى كل لحظة. وفى كل شبر. من يا ترى يعرف الله؟ من يخافه؟ أنا خفت منه، بصدق وحب، مثلما قلت لک، كلما مشيت خطوة، شفت أنى لا أقدر على العودة

إلى الخلف، وأن الله يعرف حاجتى، وأنا لا أقدر على غير هذا.

– ستغفرك يا رب. كل هذه الذنوب، وبعدها الكفر بدل التوبة.» (الراهب، ١٩٨١م: ١١٢) يعتقد أهالى قرية الشير عامة أن مريم خضير ارتكبت الخيانة بسبب عدم إيمانها واتباعها تعاليم الدين الصحيح، لكنها تقول لخولة إن سبب ذنبها لم يكن التقوى لأنها تخاف الله وتحبه، بل كان هناك شعور بداخلها لم تستطع مقاومته. تقول مريم خضير إنها شعرت بالله فى كل مكان وفى كل شبر من الأرض. الله حاضر فى كل لحظة. وفى كل شبر. تذكرنا هذه العبارة بالآية القرآنية التالية: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥) بهذه الطريقة نجد أن المجتمع حكم على مريم بنفسه رغم وجود آيات واضحة وصريحة تحذرهم من الحكم على الآخرين: ﴿مالكم كيف تحكمون ﴾ (القلم: ٣٦) ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ (الأنفال: ٧٣) ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ (الكهف: ٢٩)

يوضح هذا الجزء من الرواية أنه فى المجتمع السورى التقليدى، هناك حكم ذاتى على الآخرين. يرى المؤلف أن وجود هذه الخصلة فى هوية المجتمع السورى أمر سيء، وبطرحه القضية على هذا النحو يدعو إلى التخلى عن الأحكام على الآخرين، وخاصة على النساء. فعندما تختلط القوانين والتعاليم السليمة بالعادات و الأعراف السيئة، تتأثر الهوية الثقافية سلباً.

يعتبر المؤلف أن هذا الحكم الجائر والتشاؤم تجاه المرأة له جذور تاريخية وأسطورية: «وفى مرحلة من الحديث كان لابد أن يقول للمرأة: فى ذمتك، فى دينك، وها يدى على رأسك، لو أنك صبية مثلهن، أما كانت نفسك الخبيثة، هكذا تلعب؟. غزالة تضحك وتتنهد: يا أبو أحمد، أنت كل عمرك ضد النسوان. ويقول: أى والله صدقت، ألم تخرجنا حواء من الجنة؟» (الراهب، ١٩٨١م: ٤٤) وجود هذه النظرة الغير العادلة لدرجة أنه إذا أخطأت المرأة فى المجتمع الذكورى فعليها أن تعاقب على هذا الخطأ لبقية حياتها مثل مريم خضير فى الرواية، أما إذا أخطأ الرجل فهو لن يواجه الكثير من المتاعب فى المجتمع حتى وإن كان فعله مخالف للدين وسيحاول هذا الرجل التغطية على خطئه. كما حدث لاسماعيل وبدر جندار. كان اسماعيل على علاقة بفتاة عذراء

ومع ذلک لم تأت سيرته على لسان أحد من أهل قرية الشير وتسعى عائلته إلى إغلاق الموضوع بسرعة حتى لا يتحدث أحد به. وكذلک عندما مات بندر جندار بالسمّ فی ريعان شبابه الذی كان على علاقة مع مريم خضير على حد مزاعم أهل القرية تم اتهام المرأة بالخطيئة أما الرجل فقد تمت تبرئته تماماً: «يا مسكين يا بدر ياضيعان شبابک.» (نفسه: ٣٩)

على سبيل المثال، فی هذا الشاهد يرى الناس أنه عندما يخرج شاب وفتاة عن الأخلاق وبالتالی عن تعاليم الدين فإن المعاب فی هذا الفعل هو الفتاة فقط: «ما أكثر ما احتفی الشيخ عبد الجواد بهذا الدرع المنيع الصائن للأخلاق. فكم فتاة منعت من أن تشرد إلى حبيبها – والعياذ بالله– بفضلهن. كم من فضيحة خنقت فی المهد. كم عائلة بقيت مرفوعة الرأس لأن كحلة أو بريبهان أو تمره.. استطاعت بتدخلها الفاضل أن تضع حداً لزوغان البنت ذات الروح البارمة.» (نفسه: ٤٤)

«قال أبو أحمد، وقد أنصت للرؤيا بخشوع مهيب: "هذا جدک شيخ السنديان، رحمة الله عليه. هو الذی أخبرنی بمجيئک. يا عجباً! كيف لعالم مثله، عرف دروب الرب، أن يهتم بأنثى هذا الاهتمام! أنت يا بنتی، مؤكد، أنثى طاهرة. لا أحد يزوره الأولياء ويكون خبيثا". جدها شيخ السنديان؟ جاءها السؤال بعد يومين. جدها لا يركب فرساً. قد يكون الخضر، عليه السلام، أو الشيخ على بن سلمان. لكن ليس جدها.» (نفسه: ٩٠ – ٩١) بالإضافة إلى فكرة أن أولياء الله لا يظهرون للإنسان الخبيث، هناک اعتقاد دينی آخر طُرح فی هذه الرواية هنا وهو أن الأولياء لا يظهرون لإناث. فی حديث أبو أحمد اعتقاد خفی بأن المرأة مثال للشر، فلا يظهر لها الأولياء الصالحون.

فی المجتمع الذكورى فی سورية، كان هناک اعتقاد بأن النساء أمثلة على الشر وإن لم تكن كذلک فهی أقل قيمة من الرجل، لذلک لا يظهر لهن الأولياء. كان هذا موجودًا فی الهوية الثقافية للرجال السوريين وحتى النساء ولا يزال موجودًا لكن بشكل أقل، لكن هذه القضية ناتجة عن سوء تفسير للدين.

«تركوا أكواخهم وحلوا فی المزارات. بإذعان تام استقبلوا صرخات الزوار أن اخرجوا من هذا المكان المقدس ولا تنجسوه.» (نفسه: ٧٥)؛ لأنهم أولاد مريم خضير

" الزانيــة" الذين تخلــى عنهم جميع من فى القرية حتى أهل الوالدين وهذا ماجعلهم بلا مأوى يجوبون الجبال والســهول بحثا عن طعام ولباس، فهم نجسون غير لائقين بدخول الأمكنة المقدســة. ينتقد الكاتــب هذا الأمر عند أفراد المجتمع الذيــن ينطقون العربية والقرآن الكريم هو كتابهم المقدس ومع ذلک اعتادوا على تفســير القرآن وفقًا لظروفهم الخاصة ولمصالحهم الشخصية.

لعــل هدف الكاتب مــن وصف الطريقة التى يتم التعامل بها مع المرأة خلف ســتار الدين هو التنبيه لما قد يسببه هذا التعامل الخاطئ على شخصيتها كفرد وبالتالى تأثيره الســلبى على الهوية الثقافية لمجتمــع كامل «ومن ثوابت الراهــب الرائعة وجه المرأة الجديدة المشــرق بالوعى والتحرر، بعيداً عن شرط الحريم بحديه: دنس الجسد العبودية للذكر. وفى الوبــاء نجد هذا النموذج موزعاً فى ثلاث مراتب: مريم وخولة وزهرة. أما مريم فتحررت جســداً وروحاً، فعرفت الخبز والحرية والحب، ولذلک فهى غير آســفة على شــىء... ولكن مريم أصبحت مضغة الأفواه، وانتهت رغم تماســكها إلى الســقوط والفشــل. وأما خولة فتعطل جسدها وتحررت بشرط العمل، لكن ذلک التحرر... انتهى بها هى الأخرى لى الســقوط والفشــل. نصعد إلــى المرتبة العليا مــع زهرة... تحررت بامتلاک الوعى الاجتماعى والسياسى وهى لذلک تظل واقفة رغم الكارثة التى حلّت بها.» (حرفوش، ١٩٩٧م: ١٣٧-١٣٨)

النتيجة

اهتم الكاتب بالبعد الدينى للهوية الثقافية فى المجتمع الســورى فاستخدم أساليب عدة فى وصف المشاهد والشخصيات لتكون الرواية منصة لعرض الكثير من المعتقدات والســلوكيات الدينية التى تعكس الهوية الثقافية للمجتمع الســورى بشكل واقعى فى ذلک الوقت وليس مجرد إشــارة عابرة إلى هــذه المظاهر الدينية. فلقد نوّع الراهب من مصادر الدين لخدمة النص الأدبى فى ايصال صورة أقرب لواقع المجتمع الســورى فى تلــک الفــترة، فنجد أن مظاهر الدين قد لعبت دورا رئيســيا فى الرواية حيث برز هذا البعــد من خلال آراء الشــخصيات ومواقفها فنرى التنــاص القرآنى والحديث النبوى

والدعاء والذكر والنذر والتوسل عند الأضرحة المقدسة والامتحان والعقاب الإلهى والتفسير الشخصى للدين الإسلامى والطقوس الدينية وغيره.

رأينا أن جميع الشخصيات فى الرواية تدعو الخالق بشكل مباشر أو بواسطة الأولياء، بعضهم يواظب على إقامة الصلاة و قراءة القرآن لكن هناك بعض المعتقدات والسلوكيات المتعارف عليها على أنها مستمدة من الدين الإسلامى كاعتبار الأنثى السبب الوحيد فى خطيئة الرجل أو أنها نادراً ماتكون روحها طاهرة أو أنها الوحيدة الملامة عند ارتكاب الفاحشة. تجدر الإشارة إلى أن هذا لا يمكن اعتباره معتقدًا دينيا. لكنه زج ضمن المعتقدات الدينية أو بما يسمى تشويه الدين. هذا الأمر يضعف شخصة الفرد المحكوم بالمجتمع وبالتالى يضعف الهوية الثقافية للمجتمع.

كلما اقتربت الأحداث فى الرواية من العالم اليوم، قلّ التدين والاعتقاد الدينى والتمسک بالطقوس الدينية للشخصيات مما يؤثر على هويتهم الثقافية سلباً. لذلک، يعد هذا نوع من النقد الضمنى أنه فى الماضى كان للدين والمعتقدات الدينية مكانة أكبر فى حياة الناس، ولكن الآن، مع غزو الثقافة والإعلام الغربى، تضاءل الدين فى حياة المسلمين. هذه الرسالة واضحة فى رواية الوباء.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الأصفهانى، الراغب. (١٤٠٤ق). المفردات فى غريب القرآن. ايران: نشر كتاب.

الجابرى، محمد عابد. (١٩٩٨م). «العولمة والهوية الثقافية: عشر أطروحات». مجلة فكر ونقد الالكترونية. العدد٦. المغرب العربى: . http://www.aljabriabed.net/n06_01jab_awlama.htm

الراهب، هانى. (١٩٨١م). الوباء. بيروت: منشورات دار الآداب.

الزين، حمزة أحمد. (٢٠٠٩م). صحاح الأحاديث فيما اتفق عليه أهل الحديث. بيروت: دار الكتب العلمية.

السقا، فاديا أحمد. (٢٠٠٥م). جماليات المكان فى روايات هانى الراهب. رسالة ماجستير، جامعة البعث، كلية الآداب، إشراف الدكتور جودت ابراهيم.

السمالوطى، نبيل محمد توفيق. (١٩٨١م). الدين والبناء العائلى. جدة: دار الشرق.

أمين، جلال. (٢٠٠٩م). العولمة. القاهرة: دار الشروق.

بن ذريل، عدنان. (٢٠٠٠م). النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق. اتحاد الكتاب العرب.
تقويان، عباس. (١٣٨٧ش). «تفسير به رأى؛ چيستى وچرايى». مطالعات قرآن وحديث. سال١. شماره٢. صص٦٨-٥٣
حرفوش،سلمان. (١٩٩٧م). «قراءات فى الرواية السورية: الراهب و... الوباء». المعرفة. السنة ٣٥. العدد ٤٠٠. صص ١٤٠-١١٤
عطية، محمد عبد الرؤوف. (٢٠٠٩م). التعليم وأزمة الهوية الثقافية. القاهرة: مؤسسة طيبة.
كاظم، ثائر رحيم. (٢٠٠٩م). «العولمة والمواطنة والهوية». مجلة جامعة القادسية فى الآداب والعلوم التربوية. العدد١. المجلد ٨. صص ٢٧٢-٢٥٣
مؤنس، حسين. (١٩٧٨م). الحضارة: دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتطورها. الكويت: عالم المعرفة.
نصرى، قدير. (١٣٨٧ش). مبانى هويت ايرانى. تهران: تمدن ايران.
Bierstedt, Robert. (1957). The Social Order: An Introduction to Sociology. New York: McGraw Hill

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی